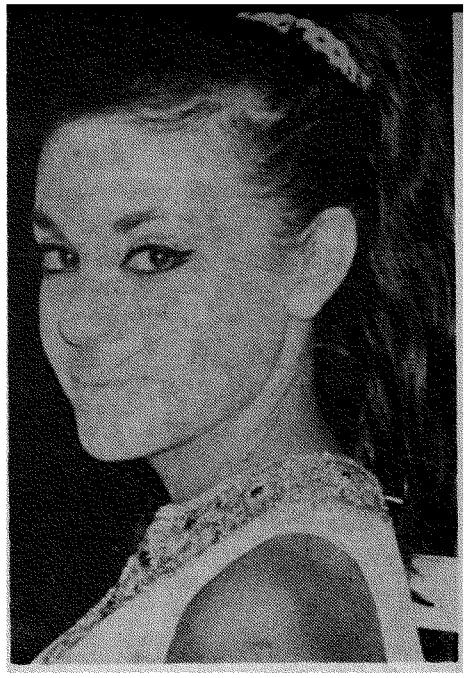

غادة السمان في «ليل الغرباء»

بقلم عدنان بن ذريل

قلائل من معارف الاديبة الفاضلة القاصة (غادة السمان) ، أو قرائها ، الذين يعرفون انها شاعرة ، بدأت حياتها الادبية بنظم الشعر، على النمط الموزون ، المقفى ، ثم النمط الحر ، وانها لا تزال تنظم فيهما دون أن تنشر ..

وأدب غادة السمان بالفعل هو ثمرة هذا الفتون الشاعري بموضوعات الذات ، والمجتمع على السواء ، وثمرة هذا الحس المجود للجرس ، والموسيقى في التعبير .. آن الميزة الاولى لادبها ، هو هذا الفيض المتدفق ، اللجب ، والمتدافع ايضا من الاحساسات الصادقة والمشاعر ، والاراء الجريئة ، تفيض على الورق واضحة ، قريبة من متناول القارىء ، وجدانه ، وخياله تارة ، وتارة أخرى مظلله ، وبعيدة عنه ، تزدحم عليها الاستعارات ، والرموز ، والاخيلة المتدفقة ، المتدافعة ايضا ..

وتجربة القصة نفسها عند غادة السمان ، في عيشها ، وانجازها ، تعكس ايضا نفس الخصيصة التي لفيض من العواطف ، والمشاعر ، ودرجات من التخييل ، والتجسيد ، ولونيات من الجرس ، والايحاء الموسيقي ..

حقيقة القصة عندها انها (رؤيا) شعرية ، لوحة نفسية ، لقطة اجتماعية ، جماع (قطاعات) نفسية ، واجتماعية ، وانها ـ أي الرؤيا الشعرية ـ هي التي تبرر فنية القصة ، (لونيات) هذه الفنية ، في بنائها أو هيكلها ، او أوصافها ، أو تحليلاتها ، أو أسلوبها .. وهي رؤيا تختلف شدة ، وحدة ، وضوحا ، وقوة ، عمقا ، وسبرا من نتاج قصصي لها ، الى اخر ..

قبل كل شيء ، لا (عامية) مطلقا في الكتاب كله .. حتى ولا عامية (الحوار) ، ولا عامية (المتحاورين) من أبناء الطبقات الشعبية المختلفة ، أو الفئات الشعبية المختلفة ..

وانما نصادف أحيانا (مفردات) عامية ، صحيحة الاصل ، قليلة جدا ، مثل (أزوغ) من زاغ ، وزيغ ، و (حوالة) بريدية لتحويل المال للمسافر ، و (بز) سيجارة .. أو (مفردات) معربة ، ودارجة مثل : ـ البارتي ، الجونبون ، البيك آب ، السيرك ، سندويشة ، الجرسون ، الدانتيلا ، سكرتير ، ريجيم .. وغيرها .

وفيما عدا ذلك ، فالاسلوب (صقيل) كالمرمر ، مجلو كالماس ، مدروس كترجيع أنشودة .. وأظن ان هذه (الخصائص) الاسلوبية التي لادب غادة السمان ، هي التي تظل تكسب قصص غادة ، ومضامين قصصها ، قوتها ، ورونقها ، وسحرها ..

هذه المجموعة القصصية الجديدة : « ليل الغرباء » ، لا شك ، آفاق جديدة من (السبر) الحضاري لشخصية الشرقي ، والشرقية ، أوحتها اليها بدون شك مناسبات أسفارها الى الغرب من أجل تحصيلها العالي ، واحتكاكها المباشر مع البيئة الغربية ، كما في (الواء) ، و (بقعة ضوء على المسرح) ، و (يا دمشق) ، أو هي تفنيد لقضايا الالتزام ، وتجربة ازاء الوطن ، والشعب ، والاصدقاء ، كما في (بقعة ضوء على المسرح) ، و (خيط الحصى الحمر) ، او هي مكاشفات جريئة ، فردية ، واجتماعية ، في الجنس ، والحب ، والحياة العصرية ، والحياة العائلية ، والزوجية ، وغيرها .. كما في (فزاع طيور اخر) و (ليلى والذئب) ، و (امسية اخرى باردة) ..

ولا شك في ان موضوعات (السبر) الحضاري ، أو (المكاشفة) في الالتزام ، تعتبر جديدة في أدب غادة السمان ، يماشي تطورها في انفعالها بالبيئة حولها ، والمجتمع ، والحياة ، بينما الموضوعات الاخرى البوحية ، والاجتماعية المختلفة ، نجدها في قصصها السابقة .

ولكن الذي يعتبر جديدا في فنيتها ، وقفزة الى الامام في أدبها ، انما هو هذا (التداعي) المزيج ، الشعوري ، واللاشعوري ، وذلك (الحديث الفردي) المزيج ايضا ، الشعوري ، واللاشعوري ، والحوار الداخلي البوحي فيه ، وأحيانا الاتجاه الى اللامعقول ، والرمز .

وهنا (الجدة) في هذه القصص القصيرة .. (جدة) في تمثل القصة ، و (طريقة) الاداء فيها .. التمثيل صار هنا الى سبر الاغوار الشعورية ، واللاشعورية ، وفي نفس منظور (الرؤيا) الشعرية عند غادة السمان ، كما صارت (طريقة) الاداء الى ايحاءات متلاحمة ، متدافعة لتجارب منوعة في نفس أبطالها .. ومن هنا (الجدة) في (البناء القصصي) لهذه القصص القصيرة ، وأسلوبها ..

ورغم ان (اللغة) في هذه القصص القصيرة ، هي نفسها (لغة) غادة السمان المجنحة ، التي ترود كل أفق ، مهما دق أو خفي ، هادئة تارة ، ومجلجلة أخرى .. الا ان الجديد في عطائها القصصي الجديد هو منحاها الجديد الى اللاشعور ، واللاوعي .. وهو هذا التقطيع ، والتوصيل ، والتقديم ، والتأخير ، سواء في التحليل ، او السرد ، أو الوصف عندها ..

لقد صار (العطاء) القصصي ، الشعري ، عندها ، الى (عطاء) ايحائي ، مستكشف ، صار الى (تداعيات) بالاحرى لا شعورية ، ولا واعية ، صار الى عبث العاطفة المكبوتة ، ونزق التمرد المبحوح .. صار (العطاء) الى رؤى شعرية ، وقطاعات من الموجود الانساني (١) ، الحي ، المندلع ، والمنساب ..

---

(١) في الادب السوري ، والعربي نماذج قليلة على هذا اللجوء الى اللاشعوري ، واللامعقول ، في موضوعات قريبة من هذه الموضوعات الحضارية ، والجنسية ، والشعبية ايضا ، نجدها عند وليد اخلاصي ، وقمر كيلاني ، وعدنان الداعوق .

سأحاول أن أضع بين يدي القارىء بعض هذه (القصص) ، وهي من غير شك متفاوتة من حيث تحليلاتها ، وغموضها ، سردها ، ومنطق الاحداث فيه .. وسأوردها كما وضعتها المؤلفة ، أدلل بذلك على هذه (الفنية) الجديدة ، مضامينها ، وأسلوبها ، والكلام بين قوسين للمؤلفة .. لنأخذ مثلا قصة : ـ فزاع طيور اخر ـ ، وهي في العقم عند زوجة ..

(تمطر ، تمطر ،

تمطر بردا رماديا ، وسأما . تمطر منذ الصباح ، وعلى وتيرة واحدة .. على وتيرة واحدة ..

تزرعني في قطار يخترق صحارى شاسعة ميتة ، وركابه لا يعرف بعضهم بعضا ...) .

وتستمر المؤلفة :

(تمطر ببلادة ، واستمرار ،

والقطة لم تنقطع عن نواحها في الحديقة .. نواح خافت ملتاع ..) ..

وفجأة ، وسط هذا (الوصف) التعاطفي ، الطبيعي ، والنفسي ، الذي يجري على لسان المتكلمة ، نسمع (صوتا) داخليا للمتكلمة نفسها :

(في الليل سمعت مواء فظيعا .. كانت أول مرة أسمع قطتي المدللة تعول هكذا . تبعث الصوت ، وجدتها في مرسمي قرب النافذة ، وعلى الوسادة خمس قطط صغيرة تتحرك ، وتزقزق .. خمسة أطفال هكذا للقطة ، ودفعة واحدة !) .. أما هي فعقيم ، عاقر ..

وتستمر المؤلفة :

(تمطر ، تمطر ،

تمطر أمسية جديدة كئيبة .. ليتها تنفجر رعدا .. تتمزق أحشاؤها برقا ...

.. وفزاع الطيور مفروس في اخر الحديقة بلا حراك أيضا ..) .

وفجأة ، من جديد ، ووسط هذا البوح (صوت) داخلي اخر :

(انه صامت دوما .. منذ زواجنا لم نتبادل الحديث الا نادرا .. تراه يتحدث الى فزاعي الطيور ، وأشباح الحدائق) .. يخرج لفافة جديدة ـ الكلام هنا عن زوجها ـ صوت داخلي جديد : (لماذا لا يقدم لفزاع الطيور سيجارة ؟) .. في أيام زواجنا الاولى كان ذلك الصمت البارد يتعسني ، يرمي بي في حديقة صفراء حلزونية يموت فيها حتى الصدى) ..

وتذهب المؤلفة بنوع من (التداعي) الحر مع بطلتها فتذكر أيام زواجها الاولى ، وشيئا من حياتها آنئذ معزوجها رجلالاعمال، والقاضي، ولكنها سئمت طعم الرماد معه ..

وتستمر :

(تمطر بين جلدي ولحمي .. تمطر داخل عظامي .. في حلقي .. فأعجز عن الاجابة على سؤاله الذي يصفع وجهي مع تيار البرد المنداق من الباب : ـ هل اتصل الطبيب وبلغك النتيجة ؟) ..

وتستمر ، ولا نتبين أهو الحديث الفردي ، أم الصوت الداخلي الذي يعاودها .. تقول له انهم ينتظرونه لفحصه ، وتقرير ما اذا كان العقم منه .. صوت داخلي مزيج ببوح :

(كانت أيضا تمطر ، ولكن بشراسة ..

كنت لا أزال أحبك . أعجز عن النوم اذا لم أخف وجهي في صدرك) ..

وتستمر في هذا الصوت الداخلي المزيج تقص كيف دخلت مرة مكتبه ، فوجدت على طاولته نتيجة الفحص الطبي التي تقرر عقمها هي .. صدمتها ، تفكيرها بالموت ، حوار مع زوجها في ذلك ..

(الهاتف ، ربما كان الطبيب ، ربما يحمل الي بشرى ما .. أظل جامدة .. لن أتحرك ، أخشى ان يكونوا ، أخشى ان يكونوا « هم » الذين « ينتظرونه » .. الخادمة (تفاحة) تدفع بطنها المنتفخ امامها تدحرجه في الردهة . ترفع السماعة . تتمتم . تتقدم نحوي وهي تحمل الهاتف باحدى يديها ..) .

ويبلغها الطبيب انها لن يكون لها طفل أبدا .. هم ، وهواجس .. (تمطر صراخا ..

من يصرخ هكذا ؟ ربما كان الجسد في اللوحة التي لم ارسم وجهها بعد يحتج ..

أركض الى مرسمي . أضيء النور . لا شيء ، لا أحد سوى أطفالي العشرين مدقوقين الى الجدران .. واللوحة التي لما تنته بعد تنتظر وجها ...) .

(تفاحة) وحدها لم تعطها اجازة منذ رأت بطنها يكبر .. انها ليست في المطبخ .. انها ممددة على ظهرها فوق الفراش ، والى جانبها سنارتاها .. تحس برغبة في أن تغرس السنانير في بطنها .. تتمتم متوسلة تريد طبيبا .. لا تجيب ، لتضع طفلها لوحدها ..

(تمطر ، تمطر ،

والخادمة تصرخ متوسلة .. منذ أسبوع تتوسل من أجل اجازة .. اذن كانت تدري ...) ..

فلتصرخ ، لن تثير فيها غير الحقد .. وتضع الخادم طفلها .. وتطلب اليها احضار الطبيب من جديد .. ومن جديد لن ترد عليها ..

(اخرج الى غرفة مكتبة زوجي . اجلس حيث كان يجلس . اخرج ورقة بيضاء . أقطعها بعناية الى قسمين . أكتب على الاولى (سأحضر الطبيب) وأكتب على الثانية (لن أحضر الطبيب) ، أطوي كلا منهما ، أضعهما في جيبي وأخلطهما .

ثم أسحب واحدة منهما . أفتحها ، وأقرأ (لن أحضر الطبيب) .. حكم قاطع لا يرد ..) ..

تصم أذنيها عن كل شيء ، وتخرج الى صديقاتها ، ولا تنسى أن تترك لزوجها ورقة تخبره بأنها عند نورا ونيللي تلعب البريدج مع بقية الشلة .

(القصة) حقا نمط جديد ، يقوم على عرض حالات نفسية ، ومواقف حياتية عن العقم ، والمشاعر المصاحبة لها ..

الظاهرة الاسلوبية الكبرى في القصة انها (قصيدة) موحدة الموضوع .. مجموعة من القيم الموسيقية التي يعطيها (التكرار) المستحب ايحاءها في السمع ، والقلب على السواء ..

(الحادثة) فيها مبددة ، اذ هي تحوي ، بالاحرى ، على عدة حوادث صغيرة ، كثير منها من (الذاكرة) .. استشارة الطبيب ، نتيجة الفحص ، موقف الزوج ، موقفها من الزوج ، من الخادمة ..

ولكن ليس هم المؤلفة ، القاصة ، هذه (الحوادث) ، حتى ولا (التحليلات) المترتبة عليها .. وانما همها (الجو) الذي يلقن مثل هذه (المواقف) لايحاء (الحياة) الداخلية للبطلة ..

قد تكون (الخاتمة) في القصة ، وهي امتناع البطلة العاقر عن احضار الطبيب لخادمتها النفساء ، خاتمة عنيفة ، او غير مقاربة للواقع ، او ايضا ، غير انسانية ، ولكنها ، مع ذلك ، يحدث انتصادف مثلها في الحياة ، خاصة ، وهي مقرونة بالشخص الذي بدد ثقتها بالخير ، او حبها للناس ، وهو (الطبيب) الذي قطع في عقمها ..

على كل حال ، الشيء الذي يلفت النظر في (بناء) القصة ، وأسلوبها ، هو هذا (الحديث) البوحي ، الذي تتتابه (أصوات) داخلية ، وحوارات داخلية ..

حقا ، لا يصل التقطيع ، والتقديم، والتاخير ، في (بناء) القصة، واسلوبها ، الى انعدام الصلة المنطقية بين المواقف ، والتحليلات ، والاحداث ، او الى اللامعقول فيها .. كل شيء في القصة مغفل ولكنه يدور في (جو) من الايحاء ..

هل هذا هو ادب اللامعقول ، والرمز ؟! ان القصة مثال واضح منه بالاحرى ، منطق الاحداث لا يزال قائما فيها ، والرموز فيها واضحة شفافة ..

لنأخذ مثلا قصة (الماء) ، وهي في (الجنس ، والبيئة) ، نلامس فيها (الجرس) الموسيقي ، وايحاء الحالة النفسية ، والاجتماعية،

الا انها تغرف من اللامعقول ، والرمز اكثر من القصة السابقة .. فلنتابع القصة في بنائها ، وهيكلها ، والكلام بين قوسين للمؤلفة .

(عاد الماء المتقطع . مواء مستمر مخنوق شاحب من هناك .

اقترب من النافذة وأطل على الهوة المظلمة : بئر من الجدران المكسوة بالهباب ، تقطعها بعض النوافذ المضيئة ، وانابيب المياه والغاز السود ، وتبدو الاشياء بمجموعها كأحشاء بطن مفتوح .

الجدار المقابل لنافذتي مقصوص من أعلاه ، يظل خلفه شبح مرعب، اكتشفت في النهار انه شجرة ضخمة ، ودهشت كيف يمكن لشجرة أن تعيش في وسط هذا الحي في لندن حيث يوحي كل ما حولي بالعقم ..) .

عاد الماء مخنوقا .. تلتفت الى حبيبها لا تجده .. ما زال الماء يختنق متقطعا خافتا لكنه مستمر .. تطل على الهوة ، تتفرس حولها ، في النافذة العليا المواجهة لغرفتها .. النافذة الملاصقة لنافذة غرفتها ما زالت مطفأة . انها لحبيبين ..

وفجأة صوت داخلي تخاطب به حبيبها (حازم) :

(أين أنت يا حازم الان ؟ لعلك في بارك المفضل في شارع فينيقيا، تشرب ويافا تحترق في كأسك ، أو في فراش امرأة ما ، يذيبها حنان يديك بينما عيناك تفيضان مللا ، ولا مبالاة ، ووجوما أقرب الى غربة النسور المترفعة ، منه الى الحزن ، ربما تناديها باسمي لانك لم تسألها عن اسمها بعد ، وقد لا تسألها ..) ..

وتستمر المؤلفة :

(بدأ الماء في الاعلى يشتد ، يتلاحق كأنفاس سجين هائج ، والنافذة قد انطفأت والستائر الحمر اسودت كأن دم متخثر لكنها ترتعش في بصيص من الضوء الخافت . شبح يتحرك خلف النافذة . اذن فقد أطفأت النور وعادت لتلتصق بالستائر ، وترقبني . الستائر تخفق كقلب مجرم يتأهب صاحبه ليغرس سكينه في جسد يحبه ، تتماوج بتلاحق بطيء متوتر ، والماء بدأ يتسارع ، ويعلو ..

هذه الفتاة الغريبة الملتصقة بالستائر ، والليل ماذا تريد مني ؟)

تقص قصتها ، وتصف هندامها المتحرر الزي .. انها ترقبها ، تأكلها بنظراتها ، والماء .. وحازم ..

صوت داخلي :

(ترى أين أنت الان يا حازم ؟) ..

و (عشرات العيون مستديرة لا أهداب لها ولا جنس لها ، كعدسات آلات التصوير ترقبني من خلف ستائر متوترة الارتجاف ، تفيض بالسأم ، والملل ، والعقم ..

الماء يستحيل صراخا متلاحقا مشبوبا ، وستائر النافذة العليا تضطرب وتخفق ، وريح مجنونة تعبث بها . انا مغمورة في برميل مملوء بالافاعي والعقارب الباردة (اين يدك يا حازم ؟) ، اهرع الى نور غرفتي فأطفئه ..) ..

وقع أقدام على الدرجات الخشبية ، قرع على الباب :

(هل أفتح الباب يا حازم ؟ وجهك مدفون في عنق طري أبيض ، وابتسامتك الساخرة تنفث القبلات ؟) ..

من حسن الحظ ، القارع هي صديقتها دزدرا .. وليست فتاة النافذة العليا .. تفتح الباب وتدخلها ، وتستغرب وحدتها ، وانغلاقها على نفسها في سجنها ..

وهنا يصبح (الصوت) الداخلي ، قصة :

(ليلة رحيلي شدوني الى صدرك .. وكنت أستنشقك بجوع قديسة الى الرجل ، أتخبط بنشوة في شباكك . اود ان لا أتحرر منها الى الابد . همست : سوف أفتقدك . وكان لصوتك رائحة أمسيات مبللة بالمطر .ووددت لو ابكي طويلا لاستعيد طفولتي ، وامني ، لكنني ظللت جامدة كما انا دائما حينما اتمزق . هربت الى الشرفة وكلماتك تصفعني : ـ انك لا تعرفين ماذا تريدين .. لا تعرفين ما تريدين !) ..

وتتابع المؤلفة (قصة) هذا الصوت الداخلي ، لتعود الى واقعها هناك :

(القطة في اعماقي تموء . دزدرا تهزني : أين أنت ؟) .

تحدثها في الفتاة الغريبة في الأعلى ، فتجد منها بالاحرى لا مبالاة تجاهها .. ويعود (الصوت) الداخلي يتابع قصته :

(وكان وجهك متعبا ، ويداك تزيحان صحنا فاخرا من الحلوى وضعه الجرسون للتو .

قلت لي : الريجيم .. أمرني طبيبي بمراعاة ريجيم خاص .

ثم ضحكت بمرارة : في القارب المعتم منذ سبعة عشر عاما كنت أرتعد بردا ويافا عند الافق تحترق ، وكنت أرتعد جوعا ، ولما ابتدأت ابكي لطمني ابي بيد واحدة ، والاخرى تنزف سائلا باردا على كتفي ..

وتمنيت ان أخفيك في صدري حنانا ، لكنني وجدتني أقول : يخيل الي انك ستظل تمزق كل ما ترسمه حتى تعود الى هناك ، وترسم لوحتك الاولى التي تبقى ..) ..

تخبرها صديقتها بأن رفيقها قادم ، وتدعوها لتذهب معهما الى مقهى (ماكابر) ، فتستفسر منها من يكون رفيقها ، وهل هي تحبه ؟.. م هل هو يحبها ؟..

(ـ يحبني ؟ أنتن الشرقيات تتمسكن كثيرا بهذه المفاهيم التي تجاوزها عصرنا . الحب ؟ كيف ؟.. ليس في غرفتي شرفة كشرفة جولييت أقف عليها في الليل . انني أعمل ثماني ساعات ، وأتحمل أحيانا قبلات رئيسي ، ورائحة أسنانه الاصطناعية كي أحصل على ١٠ باوند في الاسبوع . أدفع ٦ باوند منها أجرة لغرفتي التي تطل نافذتها على هذا المنور الاسود . واذا فرضنا انني استطعت الحصول على غرفة ذات شرفة ، ودفعت ١٥ باوند اجارا لها ، لما استطاع شارلز الوقوف تحت الشرفة ، والعزف على جيتاره ، لان السيارات المجنونة سوف تكنسه ، واذا وقف على الرصيف فسوف تطحنه أقدام المارة الراكضين خلف اخر اوتوبيس في الليل ، لانه اذا فاتهم سيكون عليهم ان يقطعوا المسافة ركضا فيما لا يقل عن ساعات ثلاث ، او يدفعوا أجرة تاكسي ويجوعوا في اليومين التاليين) ..

وتتابع :

(ـ أنتن الشرقيات لا تعرفن معنى الحياة الحقيقية : الجوع ، والرغبة ، والشهوة ، والملل ، والعقم .. كل ما يريده الرجل من امرأته هو ان تطبخ جيدا ، وتستحم جيدا .. انها نعمة على أية حال نرتمن فيها ..) ..

يعود الماء من جديد .. ويعود (الصوت) الداخلي ، وهو الان أشبه بحنين الى حازم :

(ترى أين أنت الان يا حازم ؟.. اكثر من اية لحظة مضت اعرف معنى أن أختفي في صدرك ، ومع ذلك ما الفرق بين أن أرحل ، أو لا ارحل ، ما دمنا في رحيل دائم إحدنا عن الاخر ؟ والحبل الذي يشدنا لا ينقطع فيرمينا ، ولا نريد ان يقصر فيوحد بين كياننا !..) .

تخرج دزدرا ، وتلح برقة عليها بمرافقتها ، ورفيقها الى المقهى ، تحتار .. تتذكر حازم .

ويتابع الصوت الداخلي تساؤله في حيرة حازم .. بل .. يعود الى قصته ، خاصة ان الماء لا يهدأ ، وفتاة النافذة العليا ترقب البطلة .. انه الليل .. وكم تكرهه في الخوف ..

(والسيارة تشق صدر العتمة حتى وصلنا الى الميناء وأشباح السفن في الليل تلتمع بأضوائها المتناثرة ، وتبدو البعيدة منها خيوطا من نور ..

قلت لي : هل رأيت الميناء في الليل ؟ ولم أجبك . لم أقل لك انني رأيت كل شيء قبل أن ألتقي بك ، لكن كل شيء يبدو الان جديدا ..

كنت أعرف كم يمكن ان يضحكك مثل هذا الكلام ، فتتهمني من جديد بالانتماء الى قرن مضى . وأنت الى أي قرن تنتمي ؟!) ..

ضحكات على الدرج ، عاد الحبيبان المجاوران .. الماء يعود .. تقوم توافي صديقتها دزدرا .. وهنا في صفحات اربع تقريبا ، نقفعلى

وصف مقهى حديث في لندن ، والصوت الداخلي ، وحوارها مع حازم ، ما زال يتناوب المعاودة ..

(نهبط السلم الحجري الى المقهى .. صفير شبان مراهقين يقفون حوله . ألفت الانظار بسمرتي . أوقف المواء في غابة الرجال بين الرصيف وباب القبو .. ليتني الليلة أمزق الجدار الزجاجي ، وأنضم الى العالم حولي ، « ليلة ضممتني للمرة الاولى خنقني بكاء أخرس ، توسلت الى آلهتي التي تتعرى أن تكون بلا جسد ، كي يموت العري من العالم » ..) ..

ولكنها لا تكاد تدخل حتى تجد نفسها في مقبرة .. مقبرة من نوع عجيب .

(المقاعد توابيت سود عتيقة . الاضواء الحمر الخافتة تنسكب من خلال عظام هياكل عظمية وظلال أضلاع القفص الصدري تقطع المكان بحديد قضبان لا محسوسة ، والكؤوس التي يشربون منها على التوابيت جماجم بشرية . وفي الوسط ، تحت هيكلين عظميين متعانقين علقا في السقف ترقص مجموعة يصعب علي تمييز شبانها من فتياتها .. « هذا الجيل الجديد في لندن يرعبني ، لرجاله شعر طويل ، ونظرات مخنثة لا تطاق .. ما زال الرجل في بلادي صلدا يثير حنين فتاته الى انسحاق كامل .. ما زال يعاملها على انه هو الرجل .. على أية حال لا مكان لمثل هذا في مدينة يموت من لا يعمل فيها » ..) ..

ترقص دزدرا ، ورفيقتها .. لا يتيح لهما الزحام مكانا للحركة .. يتعالى المواء من كل مكان ، وحشيا طويلا .. هنا مدينة الحب الجديد ، الحب الطحلبي .. ترتمي دزدرا فوق رفيقها ، ينكومان على تابوت مجاور ، يتبادلان القبلات .. صوت داخلي عن قبل حازم لها .. تضحك .. شاب يطلبها للرقص ، تحاول فلا تفلح ، تجلس .. تنطلق في أحلامها ، لم يعجبها احد ، وان اعجبها أحد فسترافقه الى غرفته .. العلاقات الجديدة ليس فيها رجل ، وامرأة .. فيها طرفان .. أي طرفين ..

(وفجأة أراها ، فتاة النافذة العليا ، المواء يتشنج ، تراني ، وتقترب مني ، رغم العتمة النسبية ، تتبينني كأنها تعرفني من رائحتي كأي حيوانين في الظلمة .

دون أية كلمة تجلس على التابوت الى جانبي . المواء يستحيل ضربات طبول . ايقاعات أجساد عارية مشدودة تؤدي رقصة بدائية عتيقة في غابة يتعالى من اركانها المعتمة صوت المواء .. ما الفرق بين هذه الفتاة وذلك الشاب الذي طلبني للرقص منذ لحظات ؟ « ما الفرق وانت يا حازم ، أنت وحدك تثير في نفسي احساسي بانوثتي ، ومعك وحدك أستحيل امرأة .. أما الان فلا جنس لي ، لا جنس لي على الاطلاق » ..) ..

صامتتين تصعدان الدرج الخشبي الى غرفة الغريبة .. مواء القطة يتشنج ، ويعلو .. صوت داخلي : (لا ريب في انهم يتركون لها النقود هنا كل فجر) .. تخرج الفتاة من علبة سجائرها واحدة لها واخرى لصديقتها .. ولكن هل التحام السيجارتين عند طرفين متوهجين كالجمر هو كل شيء ! مجرد لقاء الجمر بالجمر ، وتنتهي السيجارة بدقائق !!

يدها في جيبها تبحث عن نقود ، تترك لها على المنضدة عدة اوراق، وعددا من القطع الفضية ، تفتح الباب ، وتخرج ، ويلاحقها المواء من جديد ..

***

لا شك ان الفنية الايحائية ، التي لخلق (جو) نفسي ، وذهني ايضا ، تلقن بواسطة المؤلفة قضية (الجنس) ، من زاوية شرقية معاصرة في بيئة غربية ، هي الفنية المهيمنة على القصة بكاملها ..

ولكن الذي يلفت النظر في القصة ، (تعاور) عملين قصصيين فيها .. بحيث تبدو في كثير من المواضع انها تتألف من قصتين متداخلتين تتقاطع أحداثهما ، وتتناوب تحليلاتهما ، (احداهما) عن الشرقية ، وتخوفها في بيئة غربية ، و (الاخرى) عن الحياة الداخلية لهذه الشرقية ، خاصة حبها لحازم ، وتأبيه عليها

ومع ذلك يمكننا ان نقول في القصة أيضا انها من نوع اللامعقول المقل ، اذ انها بالفعل اعتمدت وسائل (التقطيع) ، و (التقديم) ، و (التاخير) ، و (الايحاء) ، لتلقين تجربة ، بل (مواقف) عن الجنس (١) ، وعلى الخصوص (عرض) الحياة الداخلية للبطلة الشرقية، وماجريات تجربتها في بيئة غربية ..

كانت موسيقى (الاسلوب) ، وجرسه ، بالفعل عامل تلقين ، وايحاء .. وقد شمل (التكرار) في القصة الجمل ، والمفردات .. خاصة ، عاد المواء ، والمواء ، بحيث كانت اشبه بمواقع ضغوط ، ونبرات في موسيقية القصة ككل ..

بينما كانت الالفاظ ، والتراكيب ، والجمل ، والفقرات ايضا ، تتماشى في موسيقاها ، وجرسها ، مع وقائع الوصف ، والتحليل ، والسرد على السواء ، والتي تتتالى ، وتتناوب في جو ايحائي صادق ، ومشبوب ، مهموسة تارة ، متقدة تارة اخرى ، حزينة تارة ، وعابثة تارة اخرى ..

ويستطيع القارىء أن يتبين في المجموعة (قصصا) أخرى اكثر اغراقا في (الحياة الداخلية اللاواعية ، واكثر قربا من (الحركة) اللاشعورية التي لوقائعها النفسية ، ولا معقوليتها .. يتعاور فيها اكثر من عمل قصصي ، وتصور مواقف مكبوتة ، او تجارب قائمة ، وقديمة ، تتمرد على الكتمان ، بل على واقع الابطال أنفسهم ..

وهي كذلك تورد هذه (الاصوات) الداخلية ، متقطعة ، متناوبة، تارة في تسلسل معقل ، وتارة دون مقدمة منطقية ، تستغلها المؤلفة كعامل ايحاء في القصة ككل ..

فمثلا ، قصة – ليلى والذئب – تتعاور فيها على تجربة البطلة ، وهي (طالبة) في كلية الطب ، هموم الدراسة ، والحب ، والجنس ، والتلاؤم مع ظروف تحصيلها ، في وسط جامعي تضطر لها السكنى مع فتيات متنوعات ، تحدثنا القاصة أن (الفتاة) التي تصطدم به البطلة هذه المرة عنيفة ، تقية ، ورعة ، في حين (البطلة) متحررة ، كانت تحب، ثم هجرت، وانطلقت في الغابة حرة .. البطلة هذه المرة (غنية) من المجتمع الراقي ، تتركها .. تحن الى الحب ، والحبيب ..

وقصة – بقعة ضوء على المسرح – مشحونة باكثر من (عمل) قصصي ، نتبين فيها الاندماج في قضية وطنية ، يتحلل منه (شاب) عصري ، اثر خروجه من (السجن) ، ويفاتح بذلك محبوبته في بلاد الغربة .. الاحداث ، والتحليلات هنا واسعة ، ومتقطعة ، وبعض المقاطع فيها غامض ، ويبدو بدون مقدمات .. ومع ذلك تؤكد (القصة) صراحة على ضرورة الانضواء تحت لواء نضالي .

دمشق — **عدنان بن ذريل**

---

(١) الخاتمة التي تذكرها القصة تشبه العلاقة الجنسية ، التي ذكرها القاص ، والروائي الكبير (سهيل ادريس) ، في روايته الاخيرة: – اصابعنا التي تحترق – بين زوجة بطله ، واحدى صديقاتها .. لولا ان (المكاشفة) هنالك مباشرة ، وواقعية الاسلوب ، وذات مردود اجتماعي .

مكتبة عبدالقيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .